

## معالم الطرق الصوفية

الشيخ محمد باي بلعالم\*

من خلال هذا المحور تتألف مداخلتنا في العناصر التالية:

أولاً: التعريف بالتصوف وأول من أسسه.

ثانياً: التصوف تربية وسلوك

ثالثاً: التصوف وثناء الأئمة عليه

رابعاً: دور الزوايا الصوفية في المناطق التواتية في التعليم والتربية والإصلاح والوئام.

خامساً: حصيلة من واقع الزوايا الصوفية وما كانت تقوم به قديماً ولا زالت تقوم ببعضه حديثاً من الأعمال الخيرية.

سادساً: شذرات من أقوالهم التوجيهية وإرشاداتهم النورانية.

سابعاً: دور الزوايا الصوفية في جهاد المستعمر.

ثامناً: أهم الشخصيات التي جمعت بين الفقه والتصوف في الجنوب الجزائري.

### 1- التعريف بالتصوف وأول من أسسه:

التصوف مأخوذ من الصفاء، لصفاء قلوبهم. وقد سميوا صوفية لصفاء

سرائرهم وبقاء آثارهم يعني طهارة ظواهرهم عن المخالفات لنقاء سرائرهم من

الكدورات، وفي يقول أبو الفتح المرسي:

تخالف الناس في الصوفي واختلفوا فيه فظنوه مشتقا من الصوف

ولست أمنح هذا الاسم غير فتى صفا فصوفي حتى سمي الصوفي

\* - إمام أستاذ وشيخ زاوية أولف، ولاية أدرار.

وهناك قول يقول إنه مشتق من الصوف، لأنهم كانوا يلبسون الصوف، الذي هو لباس الأنبياء وشعار الصالحين آثروه تواضعا، وتقللا من الدنيا، واتباعا للسلف أو لأنهم كانوا يرون أنفسهم كصوفة ملقاة على الأرض. وقال الشيخ أبو حفص الفاسي: "ظهر لي أنه منسوب إلى الصوف، لأنه في الغالب شعاره ودثاره.

وعرفه الإمام الغزالي بأنه تجريد القلب لله، واحتقار ما سواه. وهناك من يقول بأنه مشتق من الصفاء، لأن الصوفي هو أحد أهل الله الذين طهرت قلوبهم من كدورات الدنيا.

كما عزاه البعض من العلماء إلى الصفة، لأن أصل التصوف متصل بأهل الصفة ضيوف الإسلام، في حياة سيد الأنام الذين كانت صفة المسجد مأواهم، لا يأوون إلى أهل ولا مال. والصفة مكان معروف في المسجد النبوي. وعرفه الشيخ العلامة العبقري، سيدي البكري بن عبد الرحمن التواتي بقوله:

إن التصوف من الصفاء يشتق لا من صوفة الكساء  
محله القلب لا القلب بيت إلهك وقيت السبا  
وفي الحلية لأبي نعيم، في ترجمة أبي بكر الصديق رضي الله عنه: "قد قيل إن التصوف الجد في السلوك، إلى ملك الملوك، وقيل وقف الهمم على مولى النعم".

وقال في ترجمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "وقد قيل الموافقة للحق، في المخالفة للخلق، وقيل النبو على المراتب الدنيا والسمو إلى المراتب العليا، وقيل التصوف حمل النفي على الشدائد للري من شرف الموارد". وقال في ترجمة عثمان بن عفان، إن التصوف الانكباب، عن العمل تطرقا إلى بلوغ الأمل".

وقال في ترجمة علي كرم الله وجهه: "التصوف الرغبة إلى المحبوب في درك المطلوب، وقيل السلو عن الأعراض بالسمو إلى الأغراض".  
وقال في ترجمة عثمان بن مظعون رحمه الله: "التصوف، تشوق الصادي إلى الراغب عن الكدر إلى صفاء الورد من غير صدر".  
وقال في ترجمة عبد الله بن رواحة: "الصوف، الوطاء على جمر القضاء، على منازل الأنس والرضا".  
وفي ترجمة صهيب بن سنان: "إن التصوف، الأخذ بالأصول والترك للفضول".

ولقد ذكر له معاني كثيرة في تراجم غير الصحابة، تركناها اختصاراً واكتفاءً بهذه التعبيرات التي تدل كلها على أن التصوف يرجع إلى عمل القلب والجوارح بالإخلاص لله.  
أما أول من تكلم في هذا الفن، فهو الحسن البصري رحمه الله، وتلقاه عنه داود الطائي، ومنه إلى الإمام الجنيد شيخ الطائفة الصوفية.

## 2- التصوف تربية وسلوك:

إن من الأعمال التي كان يقوم بها رجال الصوفية، تربية العقل البشري تربية إيمانية وسطية خالية من الشرك والشك يقوم أساسها على ذكر الله وطاعته وعبادته حق عبادته، لأن العقل البشري من الطاقات التي أنعم الله بها على الإنسان. قال سبحانه وتعالى: " قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والافئدة".

فالإسلام يقدر الطاقات العقلية وينميها ليستخدمها في الخير، وقد وضع المنهج الصحيح للنظر العقلي فطلب تدبير نواميس الكون، وتأمل ما فيها من دقة وارتباط لأن الإسلام، لا يترك المسلم يعيش في فراغ بل يربطه بالله تعالى،

وذلك بمراقبته في كل عمل من أعماله، يربطه بتقواه التي يتسع معناها، فتشمل كل شيء يقوم الإنسان بعمله كما يربطه باليوم الآخر.

وعبادة المسلم، معناها: أن يسير في الطريق الذي رسمه الإسلام، فالقلب يحمل شحنة قوية من الإيمان والصلة بالله تدفعه إلى العمل الإيجابي الذي يريده الإسلام، وكل عمل في حياة المسلم يمكن أن يكون عبادة، ما دام قد نوى ذلك "إنما الأعمال بالنيات". فالجهاد عبادة، والسعي على العيال عبادة ومساعدة المحتاج عبادة، والوئام والإصلاح بين الناس عبادة، وتحفيظ القرآن عبادة، وتعليم العلم عبادة، وقرى الأضياف عبادة.

وهذه الصلة تقتضي، أن يكون العمال خالصا لله سبحانه وتعالى، والله لا يقبله إلا إذا كان كذلك، وبهذا ينشأ المسلم سويا قوي الصلة بالله محققا لرسالته في هذه الحياة.

وإذا كان التصوف، تربية وسلوكا فمن البديهي أن هاته التربية تفتقر إلى شيخ بصير بمعايب النفس، وأساليب التربية يبصر مريده بعيوبه، ويطلعه على خفايا الآفات التي يجب تجنبها ويسلك به طريق تزكية النفس.

وكما أنه، لا بد للمريض من طبيب، كذلك آفات النفس. وكما لا تستوي أمراض الأبدان ولا أداؤها، كذلك آفات النفس تحتاج إلى شيخ عالم بنفوس المريدين عارف، بما هو الغالب على كل منهم من الخلق السيء، فيعالجه بالحكمة وبالموعظة الحسنة المناسبة له، ثم يعين له الطرق التي ينبغي له أن يسلكها، ويحذره من الطرق الخطيرة حتى يتجنبها. وكما أن على المريض أن يمثل لأمر الطبيب كذلك يجب على من طلب الإرشاد والتوجيه أن يبحث عن شيخ عارف خبير بالطرق الموصلة إلى الله تعالى، فإذا وجدته فليمتثل لأوامره ونواهيه، ولا بد للشيخ كما ألفنا أن يكون ذا بصيرة وعلم وتقوى، شأنه شأن الطبيب

الذي يعالج الأبدان وإذا لم يكن الشيخ عالما عاملا، فإن مريده لا يأمن الانزلاق، بل يصبح على خطر عظيم والله در القائل:

وللشيخ آية إذا لم تكن له فما هو إلا في ليالي الهوى يسري  
إذا لم يكن عالم لديه بظاهر ولا باطن فاضرب به لجج البحر  
وإن كان إلا أنه غير جامع لوصفيهما جمعا على أكمل الأمر  
فأقرب أحوال العليل من الردى إذا لم يكن منها الطبيب على خبر  
فلا يستحق الشيخ المشيخة، إلا بأمور نوجزها فيما يلي:

أ- أن يكون متضلعا في العلوم الشرعية.

ب- أن يتورع عن جميع المحارم.

ج- أن يزهد في الدنيا، وان لا يعالج غيره إلا بعد مداواة نفسه، من سائر الأمراض الظاهرة والباطنة، فإن مرض مريده بسبب شبهة في علم التوحيد داواه، وإذا تحير في مسألة فقهية أفتاه.

د- وأن يكون لديه قناعة بالغنى عن الناس.

هـ- وأن يخالف من المعاصي والأدناس.

و- وأن يلزم العمل بالكتاب والسنة.

هذا هو شأن المربين من الصوفية، كانوا يعلمون الناس التوحيد، واتباع السنة والإخلاص في الأعمال والتوبة من المعاصي ويحذرون من الفحشاء والمنكر، وسائر الأخلاق السيئة كالظلم والقسوة. وكانوا يرغبون الناس في التحلي بالأخلاق الحسنة، والتخلي عن الرذائل مثل الكبر والحسد والبغضاء، وحب الجاه، وكانوا يربونهم على تزكية النفس وإصلاحها بذكر الله تعالى والنصح لعباده، والقناعة والإيثار، فتنور بهم العالم وتاب على أيديهم الفسقة والفجرة، وذلك بتأثير أخلاقهم السامية الكريمة، ومواظبتهم على الطاعة وعزوفهم عن الشهوات وترك المألوفات فواظبوا على الطاعات وعضوا عليها بالنواجذ طول حياتهم، ونشأ

فيهم حب الدين وإجلاله وصحت توبتهم وتضاؤل حب الدنيا في قلوبهم، وذلك بتأثير أخلاق أولئك الدعاة المخلصين فيهم لأن تربية هؤلاء الصوفية والمشايخ كانت تنشئ في نفوس من يصاحبهم، ويجالسهم الرغبة في حب الخير والتفتاني في فعب الصالحات والعزوف عن الفواحش والمنكرات تدل على ذلك تعبيراتهم عن التصوف، وما ينطوي عليه من الأخلاق السيئة والأحوال النفسية من فناء العبد من نفسه وبقائه بربه.

يقول بعضهم وهو يشرح التصوف: "قلة الإشارة، وترك الشطح عن العبارة والتمسك بعلم الشريعة، ودوام الكد واستعمال الجدن والاستيحاش من الناس وترك الشهوة وإظهار التحمل واستشعار التوكل واختيار الفقر ودوام درس القرآن".

### 3- التصوف وثناء الأئمة عليه:

إن السادة الصوفية، كلهم متجردون عن الدنيا مقبلون على عبادة ربه يحضون على التمسك بالشريعة، وينصحون إخوانهم بالتمسك بها ويأمروهم بالإخلاص، والتوكل على الله، والإنابة إليه، والتوبة من الذنوب وحفظ الجوارح الظاهرة والباطنة، والصبر والحلم والذكر، وقراءة القرآن تصفية للنفس من الأكدار وتنقية للقلب من الأغيار.

ولهذا أثنى على طريقتهم الشريفة، الكثير من العلماء الأخيار:

يقول الإمام مالك بن أنس عن التصوف: "من تفقه ولم يتصوف، فقد تفسق. ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق".

وقال الإمام الشافعي رحمه الله: "استفدت من مشايخ الصوفية، ما لم أستفد من غيرهم مثل قولهم: أشغل النفس بالخير وإلا شغلتك بضده". وكان الشافعي رحمه الله يلازم شيبان الراعي، ويستفيد منه وهو من خواص الصوفية.

أما الإمام أحمد رحمه الله، فقد قال عنهم: "إن الصوفية بلغوا في الإخلاص مقاما لم نبلغه".

وقال سفيان الثوري: "أعز الخلق خمسة: أنفس عالم زاهد، وفقه صوفين وغني متواضع، وفقير شاكراً، وشريف سني".

أما الإمام ابن تيمية فقد قال: "وأما حجة أهل الذوق والوجد، والمكاشفة فإن أهل الحق من هؤلاء لهم إلهامات صحيحة مطابقة لما جاء في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم".

ابن خلدون: "إن الصوفية لم تزل طريقهم عن السلف من الأمم وكبارها من الصحابة، ومن بعدهم طريق الحق والهداية".

ويقول الشيخ أحمد زروق: "التصوف طريق أنتجها الصالحون من أولياء الله، وظهرت نتيجتها في كثير من عباد الله واشتملت على رجال قاموا بأحكام الشريعة، وآداب الحقيقة، وتعلقوا بأسماء رب العالمين، وتخلفوا بأخلاق سيد المرسلين".

وقال الشيخ محمد عبده: "الصوفي، نسبة إلى الصوفية وهم طائفة من المسلمين همهم العمل لإصلاح القلوب وتصفية السرائر والاستقبال بالأرواح، وجهة الحق الأعلى جل شأنه".

أما الشيخ محمد رشيد رضا فقال عن الصوفية: "الصوفية هم طائفة انقطعت إلى الزهد في الدنيا، والعمل للآخرة، بريضة النفس، وتربية الإرادة ومحاسبة النفس وحسن النية".

وقال أبو إسحاق الشاطبي: "إن الصوفية الذين تنسب إليهم الطريقة مجمعون على تعظيم الشريعة مقيمون على متابعة السنة غير مخّلين بشيء من آدابها".

وقال الأمير عبد القادر الجزائري: "التصوف طريقة توحيد الكتاب والسنة وكانت عليها بواطن الخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين، والسادات العارفين"، وقال مجد الدين الفيروز أبادي مؤلف الفاموس المحيط: "لا يجوز لأحد أن ينكر على القوم ببادئ الرأي، لعلو مرتبتهم في الفهم، والكشف، ويدق كلامهم على الأفهام ولم يأمرُوا بشيء يهدم الدين".

وقال محمد فريد وجدي: التصوف مذهب الغرض منه، تصفية القلب من غير الله، والصعود بالروح إلى المكانة الرفيعة بإخلاص العبودية لله والتجرد عما سواه، وقال الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الجامع الأزهر سابقا: "إن أئمة الصوفية، يمثلون في حياتهم منهجا وموضوعا يترسم التربية الإلهية، وهدي الرسول صلى الله عليه وسلم، ويحاولون ما أمكن أن يكونوا بقدر الاستطاعة، ورثة الأنبياء، علما ورثة الأنبياء، سلوكا ورثة الأنبياء مقامات".

#### 4- دور الزوايا الصوفية في المناطق التواتية في التعليم والتهذيب

##### والإصلاح والنوام:

تأسست الزوايا الصوفية في توات منذ تأسيس المنطقة. والزاوية لغة مشتقة من زوى أي جمع لأن فيها تجتمع الضيوف والفقراء وطلبة العلم، ويجمع المال لها بالطرق المشروعة لتمويلها، وتسيير نظمها.

وفي الاصطلاح: هي مؤسسة دينية روحية إسلامية ولها معان في عرف كل صقع من أصقاع الدنيا، وفي هذا المضممار جادت قريحتنا بأبيات شعرية في معاني الزوايا، حب اختلاف المناطق والأزمنة، فقلت:

|                          |                         |
|--------------------------|-------------------------|
| أما الزوايا فهي ركن يبنى | كدير أو صومعة في المبنى |
| وفي شمال القارة السمراء  | ينمي لما خص بالأولياء   |
| وقيل اسم لبناء قد جمع    | مدرسة وغرفا لها تبع     |
| فيجد الطالب فيها مثوى    | وهي للضيوف أيضا مأوى    |

فهي على الجملة دار الدين منزل للضيف دون مين  
وهي في الشرق تسمى بالرباط وكل منشأ يعد للشناط  
وعُرفت في صدر ثامن القرون بأنها المسجد والحرز المصون  
فيها المرافق لكل طالب وهي الحماية لكل هارب  
فهي دار الصلح والملائمة وهي دار الخير والمسألة  
فينبغي لهذه المؤسسة أن تنشر العلم وان تقدسه  
وأن تصحح العقيدة لمن ارتادها في كل وقت وزمن  
كما عليها أن تحارب البدع وكل ما الشرع علينا قد منع  
مثل الخرافات ومثل الشعوذة وكل ما الشيطان قد استحوزه  
وأن ترد الأمر للكتاب كذا لسنة النبي الأواب

لقد قامت الزوايا الصوفية، في توات بدور هام في التربية والتعليم والإصلاح، والوئام. فكانت طريقة روحية اتخذت التعبد والتنسك، وسيلة لإصلاح النفس والمجتمع، وتقوم على الرياضة التي تسمو بها النفس إلى درجة الاتصال الروحي بالمأ الأعلى حتى يصير كل من عدا الله باطلا حقيرا في أعينهم، وفي ذلك تحقيق لمعنى لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأن لهم جهودا ملموسة في نشر الإسلام، وتحفيظ القرآن وتعليم العلوم الشرعية واللسانية، فقامت بنشر العلم والمعرفة، وأمدت روادها بيد المساعدة يتجلى في إيوائهم، وإطعامهم، وتزويدهم بكل ما يكفل لهم العون على أداء مهمتهم النبيلة.

ومن هاته الزوايا، تخرج أئمة الصلوات والمحدثون والفقهاء والشعراء والقضاة والنزهاء، والدعاة الأكفاء الذين حملوا مشعل النور والهداية إلى الآفاق، فبلّوه إلى أمتهم لا يريدون بعملهم جزاء ولا شكورا، وبفضلهم حفظ الله القرآن

الكریم، والسنة النبوية، وأقوال العلماء الفقهية واللغة العربية، في وقت كان الأعداء يحالون أن يسلخونا من ديننا وثقافتنا.

ومن الأهداف النبيلة، التي كانت كذلك تقوم بإطعام الطعام للضيوف الزائرين، والفقراء، المعوزين على اختلاف أغراضهم، وتباين أجناسهم ابتغاء وجه الله من طرف ذوي النيات الحسنة الذين لا يريدون بأعمالهم جزاء ولا شكورا، وكانت هذه الزوايا ولا زالت تقوم بالإصلاح بين المتنازعين والتقريب بين المتباعدين، لعب أهلها دورا بالغ الأهمية، فيما ذكر، وكانت كذلك ولا تزال تعمل على مساعدة الفقراء والضعفاء والسماكين، كل حسب رغبته، فمن يحتاج إلى الإيواء يجده في الزوايا، ومن يحتاج إلى المواساة المادية يجدها في الزوايا.

وكان شيوخ هاته الزوايا قديما وحديثا يتمتعون بسمعة طيبة، فهم محل ثقة الناس واحترامهم وأهل الكلمة المطاعة فيهم فلا يخالف قولهم ولا ترد شفاعتهم بحيث أن الإنسان مهما وقع في خطأ والتجأ إلى الزاوية الصوفية فإنه لا بد وأن يعفى مما جناه ويعمل شيخ الزاوية على إنقاذه من ورطته ولو أدى الأمر إلى بذل الأموال الطائلة ما لم يكن جرمه يستوجب حدا في الشريعة الغراء. لقد أدت هاته المؤسسة الروحية مهمتها النبيلة في ظروف صعبة، وفي ضعف مادي، وقى معنوية مكنتها من المحافظة، على تراث أمتها المسلمة من التلاشي والاندثار فكان روادها رسل نهضة وحضارة ودعاة خير وبر وإحسان، أرشدوا الناس إلى الأخذ بأسباب العلم والمعرفة، والتمسك بأهداف الدين، والرجوع إلى منابعه الصافية البعيدة عن الشعوذات والخرافات، التي أصبح السواد الأعظم من المسلمين آنذاك يعتقدون أنها من الدين، والدين منها بريء، فظلت زوايا الصوفية مركز إشعاع علمي احتضنت ثقافتنا وأصبحت صفحة مشرقة من صفحات تاريخنا، وجانبا مثمرا من حضارتنا ربطت السلف بالخلف، ووصلت مشرق الأمة بمغربها، واستمدت منهاهجها التربوية والروحية من دين الإسلام

الصحيح، فبهديهما تهتدي، وبنورهما تستضيء فكانت تشع بالنور والصفاء، وتفجر في القلوب معاني الحب والإخاء، فلم تكن أبدا ديرا للرهبنة، ولا مأوى للمتعتلين ولا مستشفى للمشعوذين، لأن الإسلام الحنيف ينفر من حياة التبلد ويرفض، الاتكالية والانحزامية، فإذا أردنا أن نرجع للزوايا الصوفية، مجدها وعظمتها، وطابعها، فما علينا إلا نختار لها المناهج الصحيحة وتطهرها من كل الخرافات والبدع من كل ما تغاير مع السنة المطهرة.

#### 5- حصيلة من واقع الزوايا الصوفية وما كانت تقوم به قديما ولا

زالت تقوم ببعضه حديثا من الأعمال الخيرية:

- 1- تحفيظ القرآن.
- 2- تعليم الفقه وسائر العلوم الشرعية.
- 3- محاربة الاستعمار عند الاحتلال.
- 4- نشر الإسلام في كثير من الأصقاع في الجنوب.
- 5- مكافحة الأمية.
- 6- محاربة اليهود وطردها من توات.
- 7- حضن اليتامى والقيام بشؤونهم.
- 8- معاونة الفقراء في الأعراس.
- 9- القيام بالختان الجماعي.
- 10- القيام بالرحلات إلى الحج.
- 11- تفجير الفقاقير وغرس النخيل.
- 12- بناء دور للضيافة.
- 13- بناء الحصون والقصور لحماية المواطنين.
- 14- حفر الآبار في الطرق التي تربط بين البلدان.
- 15- إغاثة الملهوفين.

- 16- الإعانة في بناء المساجد والكتاتيب القرآنية.
- 17- الإصلاح بين الناس.
- 18- إحياء المواسم الدينية مثل المولد النبوي والأعياد.
- 19- ملتقيات تلقى فيها دروس ومحاضرات في كثير من الزوايا.
- 20- نسخ الكتب واستيرادها.
- 21- وضع خزائن للمخطوطات.
- 22- تأليف الكتب في فنون شتى وخصوصا في العوائد والأعراف والفتاوى.

#### 6- شذرات من أقوالهم التوجيهية وإرشاداتهم النورانية:

لقد كانت أقوالهم الإرشادية، وتوجيهاتهم الربانية، دعوة إلى إصلاح الأفراد والمجتمعات، إلى عبادة رب الأرض والسموات، واتباع الكتاب وسنة إمام الهداة، وتطهير العقيدة من الشرك، والشك، والضلالات، فمن ذلك يقول إمام الطائفة الصوفية علما وعملا أبو القاسم الجنيد بن محمد سيد الطائفة الصوفية: "ما أخذنا التصوف عن القليل والقال، ولكن عن الجوع وترك الدنيا، وقطع المألوفات والمستحسنات". ومن كلام هذا الإمام: "الطرق كلها مسدودة عن الخلق، إلا من اقتفى آثار الرسول صلى الله عليه وسلم".

وكان يقول لمريديه: "احفظوا ساعاتكم، فإنها زائلة غير راجعة، وصلوا أورادكم تجددوا نفعها في دار الإقامة، ولا يشغلكم عن الله قليل الدنيا، فإن قليلها يشغل كثير الآخرة".

وكان من أوراده أربعمئة ركعة كل يوم، وكان صائم الدهر لا يفطر، إلا الأيام المحرم صومها، وإلا إذا دخل عليه إخوانه، فيأكل معهم وهو ساكت، ويقول ليست المساعدة مع الإخوان بأقل من فضل الصيام.

ومن أقوال الشيخ أبي مدين شعيب دفين تلمسان: "في حقيقة الشيخ المري، ليس شيخك من شهدت له ذاتك بالتعظيم، وشهد له شرك بالتقديم، شيخك من هذبك بأخلاقه وأدبك بإطراقه، وأنار باطنك بإشراقه".  
ومن كلامه رحمه الله وحسن توجيهاته: "بفساد العامة تظهر ولاية الجور وبفساد الخاصة تظهر دجاجة الدين الفتان"، وقال أيضا: "احذر محبة المبتدعين فهو أبقى على دينك واحذر محبة النساء فهو أبقى على عقلك".  
ومن علماء الصوفية وحكمائها الإمام أبو الحسن الشاذلي من أقواله: "إذا عارض كشفك الكتاب والسنة، بهما ودع كشفك فإن الله قد ضمن فيهما العصمة ولم يضمنها في الكشف".

وكان يقول: "إذا رأيت رجلا يسكن إلى الرياسة والتعظيم، فلا تقرب منه. وإذا رأيت من يستغني بعلمه - يعني عن علوم الشرع المستقاة من الكتاب والسنة - فلا تأمن جهله، وإذا رأيت رجلا يدعي مع الله حالا يخرج عن الشرع فلا تقرب منه".

### الصوفية والكرامة:

الكرامة، الأمر الخارق للعادة، غير المتحدي به، وهي ثابتة بالكتاب والسنة، لا ينكرها إلا جاهل أو متجاهل، وقد تصدر على يد عامي من العوام، لكن الكمل من الصوفية لا يعبؤون بها، ولا يلتفتون لها ولا يحبونها.

ومن كلامهم الاستقامة خير من ألف كرامة:

قال العراف بالله أبو يزيد البسطامي: "لو نظرتك إلى الرجل أعطي من الكرامات حتى ترقى في الهواء فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجذونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود وأداء الشريعة".

يقول الإمام الأخصري رحمه الله في أرجوزته:

وقال بعض السادة الصوفية مقالة جليلة صافية

إذا رأيت رجلا يطير أو فوق ماء البحر قد يسير  
ولم يقف عند حدود الشرع فإنه مستدرج وبدعي  
ومن النصائح الشاملة العامة، التي صدرت من أحد أعلام الصوفية يحث  
فيها على العبادة بسائر أصنافها والتخلق بالأخلاق الكريمة بشتى أنواعها، وعدم  
الركون إلى الكرامة والغرور بها، وهو الشيخ سيدي عبد السلام الأسمر، يقول  
موصيا: "وعليكم بتعلم العلم الواجب، عليكم الذي يقربكم مثل التوحيد  
والآداب الشرعية، وما تصححون به عبادتكم من الطهارة، والصلاة، والصوم،  
والحج، وعلم الأحكام، لمن احتاج إليه منكم ولا تفعلوا فعلا حتى تعلموا حكم  
الله فيه، فإن لم تعرفوا فاسألوا العلماء التابعين لسنة النبي صلى الله عليه وسلم،  
وهم العاملون بعلمهم، وإياكم أن تسألوا الجهال، تقتدوا بهم فتكونوا مثلهم،  
وعليكم بصحبة أهل العلم، ومزاحمتهم، والمشى معهم وزيارتهم، والصدقة عليهم،  
واعتقاد الخير فيهم، فافهموا".

ثم قال رضي الله عنه محذرا لإخوانه عمن لا يتبع الشرع: "وإياكم  
والاستدراج، واتباع نزغات الشيطان اللعين في اليقظة والمنام، فإنه يغوي المؤمن  
بالأحكام الكاذبة والصادقة، والتأثيرات، وهي التي يقول لها العامة العربون،  
ويعمل مكاشفات وقضاء حاجات، وارتعاشا في الأذكار وحضرات وعربونا في  
الناس وطيرانا في الهواء ومشيا على الماء وصحبة الناس، وغير ذلك فهذه كلها  
من علامات الاستدراج إذا وقعت من المغرور، وهو الذي يكون منكبا على  
الدنيا، انكباب الكلب على الجيفة، تابعا لهوى نفسه، جاهرا بالبدع المحرمة،  
طائعا لنا لم يعبأ بفرض ولا سنة ولا أدب، فمن كان هكذا وظهرت وظهرت  
العلامات المذكورة على نفسه، فإنه مستدرج لا محالة، وتلك العلامات لا تكون  
ربانية إلا إذا صدرت من رجل تابع للكتاب والسنة، زاهدا في الدنيا مشتغرا  
أوقاته في الذكر والعبادة بالشوق والوجد، والمحبة قد مزقت قلبه غائب عن الخلق،

متعلق بالحق سبحانه وتعالى، فمن كان هكذا وصدرت منه تلك العلامات فغنمها ربانية".

#### 7- دور الزوايا الصوفية في جهاد المستعمر:

أدرك المستعمر الفرنسي الغاشم، الدور الريادي الذي تقوم به الزوايا الصوفية من الدعوة إلى جهاده، ومحو آثاره فعمد إلى شل حركتها ومصادرة أوقافها وتعطيل المدارس العلمية بها.

ورغم ذلك ظلت تلکم القلاع العتيد تغالب الموج وتصد التيار الاستعماري الجارف، وبفضلها تحول شعبنا الجزائري المسلم إلى طود شامخ البنيان، راسخ الأركان، لا تهزه العواطف، ولا تزعزعه الحوادث.

ومن بين جنابات تلکم المؤسسات الروحية، انطلقت جحافل الإيمان وجنود الرحمن وقوافل الشهداء، الذين كانوا يعملون في صمت وخفاء في قمم الجبال، وفي أقاصي الصحراء، تحت رحمة الحر والقر والجوع، والمسغبة، فكانت الأعمال متواصلة والأمة متماسكة لم يقر لهم قرار، ولم يهدا لهم بال، والحرب لم تضع أوزارها، فواصلوا الجهاد والكفاح، والجلاد بدون ملل ولا يأس، ولا كلل حتى تحقق لهم النصر المبين والفضل في ذلك يرجع إلى هاته الزوايا التي كانت تغذي الشعب وتنير قلوبه بنور الإيمان ونور العلم والقرآن.

#### شخصيات برزت في علم التصوف:

أولهم الإمام العارف بالله الحسن البصري رحمه الله، وإبراهيم بن أدهم، ورابعة العدوية، وسفيان الثوري، وبشر الحافي، وأبو القاسم الجنيد، وشيخ الإسلام مولاي عبد القادر الجيلاني، والشيخ أبو حامد الغزالي، وأبو الحسن الشاذلي، والتقي المحدث أبو مدين شعيب دفين مدينة تلمسان، ومنهم الإمام

المفسر الفقيه الأصولي، الشيخ سيدي عبد الرحمن بن مخلوف الثعالبي، والشيخ محي الدين والد العلامة المجاهد الأمير عبد القادر الجزائري.

#### 8- أهم الشخصيات التي جمعت بين الفقه والتصوف في الجنوب

الجزائري:

لما وصلت الطرق الصوفية إلى هذه النواحي التواتية، في الجنوب الجزائري، كان بها رجال عظماء جمعوا بين الفقه والتصوف، وكانت مدارسهم الفقهية لا تتخلى عن جانب التصوف، وكانوا يدرسون كتبه الصحيحة مثل الحكم لابن عطاء الله، وكتب الإمام الغزالي، وغيرها من كتب القوم وكانت طريقهم في التصوف طريقا وسطية، ليست تطرفا ولا تخرفا، وكانوا يميزون بين الكرامة والاستدراج، ويحضون على اتباع السنة واجتناب البدعة حملوا أمانة الإصلاح والتربية، والإرشاد وتركية النفوس، فأدوها كاملة غير منقوصة فثقافتهم جمعت بين الفقه والتصوف وغيرهما، وكان مذهبهم في الفقه ما ذهب إليه إمام دار الهجرة، الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه.

ومن بين هاته الشخصيات الفذة الإمام المجاهد، العلامة الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني مولدا، التواتي مدفنا، والشيخ عمر بن عبد القادر التنايني، وآل الشيخ البكري أجدادا، وأحفادا، وآل البلبالي أجدادا وأحفادا، وآل الزجلاني أجدادا وأحفادا، مثل الشيخ أحمد بن ديدي والشيخ أحمد الطاهري، والشيخ محمد بن الكبير وأهل بودة، والشيخ سيدي موسى، والمسعود وسيدي الحاد، بو محمد، والسيد عمر بن صالح، والشيخ القطب مولاي عبد الله الرقاني، وابنه الشيخ مولاي عبد الملك، وآل مولاي هيبة، وشيخ الركب الشيخ سيدي محمد بن أبي نعام. والشيخ جعفري الحاج عبد الله بن السيد جعفر وابن أخيه السيد محمد بن السيد الحاج التيجانيين.

ومنهم العلامة الشيخ حمزة بن الحاج بن الحاج أحمد القبلاوي، والأستاذ الشيخ محمد عبد الرحمن السكوتي الملايخاني، والشيخ السيد محمد عبد القادر بن محمد بلعالم، والشيخ محمد الحسن بن محمد بن الحاج أحمد وابن مالك السيد أحمد بن الشيخ حمزة القبلاوي، والسيد أحمد بن محمد بن الحاج عبد القادر الفلاني، وابنه السيد محمد عبد القادر بن أحمد والعلامة السيد بن مالك أحمد بن محمد الحسن.

ورجال العلم والتصوف في توات، يعسر تعدادهم والمنطقة مملوءة بالعلماء والصالحين، في مناطق توات الثلاث تديكلت وتوات وتيميمون. وتوجد في توات طرق صوفية منها: القادرية، والتيجانية، والرقانية، والوزانية، والصادقية، والنوسية، وكل من هاته الطرق أتباع ومريدون. فهؤلاء الشيوخ كانوا على درجة عظيمة من الورع والتقوى، كانوا على منهج الإمام الحسن البصري، وسفيان الثوري، وكانوا يعطون الصورة الصادقة عن الإسلام في لوكلهم الاجتماعي، وفهمهم الإسلامي ومهمتهم الإرشادية، وتوجيههم التربوي وعقيدتهم السليمة الصحيحة، التي لا شك فيها، ولا شرك ولا إفراط ولا تفريط.